الفلسفة الإسلامية المتأخرة

للدكتور جواد علي

— ٢ —

وكتاب الأسفار من الكتب الفلسفية المهمة، وقد اكتسب مؤلفه شهرة عظيمة جعلته في عداد كبار فلاسفة الإسلام. فإنك إذا ما قرأت الكتاب شعرت بأهمية المؤلف وبالمسائل العويصة المدونة فيه. وبالأفكار والنظريات الفلسفية العويصة المسطرة في صحائف السفر العظيم. تذكرك بكتب ابن سينا أو محي الدين بن العربي أو الطوسي وبأمثالهم من فلاسفة المسلمين. وقد غلط المستشرق كوبينو « Gobineau » في ترجمة عنوان الكتاب إذ توهم فظن أن المقصود من «الأسفار» السياحات ولذلك اختار كلمة «Voyage» والحال أن مقصود المؤلف من كلمة « أسفار » جمع «سفر» ومعناها الكتاب. ومقصود المؤلف من « الأسفار الأربعة » الكتب الأربعة لا السياحات الأربعة كما ظن ذلك هذا المستشرق المذكور[1].

راجت كتب الملا صدرا رواجاً عظيماً وشرحت عدة شروح وظلت آراؤه فيما وراء الطبيعة تحتل مكاناً بارزاً في عالم الفكر الإسلامي حتى اليوم. ولا زالت كتبه تستعمل في الجادة القديمة لمن تقدم في موضوع الفلسفة كما تستعمل كتب ابن سينا أو ابن رشد. وقد أثرت آراؤه هذه على الأخص في الهند وإيران والأفغان فأوجدت بعض المذاهب الإسلامية التي لم تلبث أن أصبحت مذاهب دينية ذات مناهج مستقلة مثل مذهب « الشيخية » المنسوب إلى الشيخ أحمد بن زين الدين الإحسائي المتوفى سنة ١٢٤٣ للهجرة ولسنة ١٨١٧ — ١٨٢٨ للميلاد[2].

تأثر الشيخ أحمد الإحسائي بآراء الملا صدرا كثيراً فشرح بعض كتبه مثل كتاب «الحكمة العرشية» وكتاب «المشاعر»[1] وهو عيال على الملا صدرا على الأخص في موضوع ما وراء الطبيعة. وبالنظر إلى ما كان يظهره من غلو في بعض الآراء نفر الناس منه والتمس الشيخ حامياً له ومعيناً، وكان ذلك الحامي هو الأمير محمد علي ابن فتحعلي شاه حاكم مدينة « كرمانشاه ». ولما توفي هذا الحاكم اضطر إلى مغادرة إيران والالتجاء إلى « الحائر » المقدس في العراق حيث ألّف كثيراً من كتبه وشرح ما وراءه من كتب الملا صدرا المهمة وبعض الكتب الأخرى[2]. وقد عرف اتباع الشيخ أحمد باسم « الشيخية » وهم جماعة خاصة ظهرت في جماعات الشيعة في إيران. تزعمهم تلميذ الإحسائي ومنظم صفوف الشيخية « السيد كاظم الرشتي » أبرز تلاميذ الإحسائي على الإطلاق[3]. (توفي سنة ١٨٤٤ م). وكان هذا السيد من أردبيل ملجأ الشيخ صفي الدين الأردبيلي المتصوف المشهور وجد الأسرة الصفوية والذي ينسبه الكتاب إلى الإمام موسى الكاظم الإمام السابع على ترتيب الشيعة الأثني عشرية من آل البيت[4].

يروي عن الشيخية أن الإمام تجلى للسيد كاظم الرشتي في ليلة من الليالي وكان عمره إذ ذاك اثني عشر عاماً وأشار عليه بوجوب الذهاب إلى مدينة « يزد » إحدى مدن إيران والالتحاق بحاشية الشيخ أحمد الإحسائي الذي كان يعظ يدرس في تلك المدينة. وقد اتبع السيد أمر الإمام وذهب إلى المدينة وأصبح من تلاميذ الشيخ وأصحابه ومن أقرب الناس إليه[5]. ولما غادر الإحسائي إيران ثم ترك العتبات المقدسة في العراق لأداء فريضة الحج توفي في الحجاز ودفن بالمدينة في جوار قبور الأئمة بالبقيع سنة ١٢٤٣ للهجرة[6]. وأصبح السيد كاظم الرشتي خليفة الإحسائي والنائب

---

(١) راجع Brown Vol 4 P, 430 Gobineau Rel. et. les Philos. 1866 P, 81. كذلك مجلة المجمع العلمي العربي عدد ١١ — ١٢ مجلد ٩ ص ٣٠٦ وما بعد.

(٢) عن الشيخ أحمد الاحسائي راجع روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ وما بعد — أيضا رجال النيسابوري. وكان النوري يذكر فضله. nicolas, Essai sur le Cheikhisme, Port 1, P 60, Port 2 PP, 32 — 36.

cf. Huart, in the Encyclopaedia of Islam Vol 4. P, 279.

(١) Donaldson, The Shi. ite Religion PP, 360 — 361

(٢) روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧. Brown Vol 4 PP, 410. Brown Travelleis narrative PP, 197 — 8 PP, 278. Donaldsou The shi'ite Religion P, 361. Huert. Art Shaibits Vol 4 P, 279.

(٣) نفس المصادر

Harten The Philosophi of islam P, 142.

(٤) Donaldson The Shi'ite Reli PP, 278

(٥) راجع nicolas Essai sur le cheikhisme Part, 22, PP, 32 — 36.

Donaldson the Shi'ite Religion P, 361.

(٦) راجع روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧ Brown P, 410

منا به فى الأمور . فنظم شئون « الشيخية » وألف فى الدفاع عن عقيدة أستاذه وفى توضيح قواعد المذهب الجديد إلى أن توفى بغرض أصابه ببغداد دون أن يتمكن من النص على تعيين شخص يكون خليفته من بعده وزعيم الشيخية الذين المطاع بالنص والتعيين[1] .

فانصرفت جماعة منهم إلى الميرزا على محمد الشيرازى (ولد سنة ١٨٢٠ م — قتل سنة ١٨٥٠ م) الذى جاء بتعاليم جديدة تلتقى فى الفكرة التى استقى منها الملا صدرا تعاليمه والشيخ أحمد الإحسائى والبابية عيال على الشيخية فى آرائها وفى أفكارها المثالية ولا سيما فى نظرتها إلى الإمام المهدى وعلاقة الإمامة بالإنسان[2] .

ومن أقوال الإحسائى فى الحشر والمعاد قوله « إن هذا البدن المحسوس المركب من العناصر الأربعة يفنى ويزول ولا يعود والمحشور فى القيامة هو البدن النورى الذى تراه فى منامك . كما يقول إذا دخلت فى النوم خلعت الجسد العنصرى وبقيت فى الجسد الهورقليائى وجميع أجسام الجنة والنار من قبيل الصور النومية[3] وقد أنكر معراج النبى بالبدن العنصرى البشرى المحسوس « مستدلا بأن الصعود بهذا البدن يلزم منه الخرق والالتئام تبعاً للفلاسفة »[4] وفسر المعراج تفسيراً يختلف عن التفاسير المألوفة التى تحاول التوفيق بين العقل والنقل .

وينسب إليه الغلو فى الأئمة حتى إنه أشركهم مع الله فى الخلق وفى القدرة وفى مسائل أخرى هى من صفات الألوهية والربوبية ؛ لذلك حكمت عليه طبقة العلماء بالكفر والخروج عن الدين وكتبت بذلك وثيقة وضعتها فى كربلاء إحدى المدن المقدسة فى العراق[5] .

ولم يكتب الرواج للمذهب « الشيخى » على عكس « البابية » التى نشأت فى أحضان « الشيخية » ونمت بتربتها . والظاهر أن للتنظيم وقدرة زعماء البابية على إحكام أساليب الدعاية وتوجيه أنظارهم نحو العالم الخارجى التعطش لكل فكرة غريبة هى التى دعت إلى رواج هذا المذهب الغريب . أما المذهب « الشيخى » فلم يظهر فى وسطه زعيم قوى بعد وفاة خليفة « الإحسائى » السيد كاظم الرشتى يستطيع الاستمرار على دعاية ذلك المذهب على الرغم من الجهود التى بذلها بعض علمائهم من أمثال الحاج محمد كريم خان الكرمانى والملا محمد المامقانى (Mámaqàni)[1] . ومع ذلك فلا زالت هنا لك جماعة صغيرة مشتتة بين العراق وإيران وسواحل الخليج تنتمى إلى مذهب الإحسائى ولكنها لا تتظاهر بذلك ولا تجهر به .

وأكثر الكتب المؤلفة فى عقائد « الشيخية » هى من تأليف الشيخ أحمد الإحسائى نفسه الذى كان مؤلفا وكاتباً نشطا فى التأليف ، ومن تآليف تلميذه وخليفته السيد كاظم الرشتى والكرمانى والمامقانى ومن ظهر من رجالهم . وقد طبع بعضها ولاسيما كتب الشيخ أحمد الإحسائى فى إيران والهند . ولدى الأستاذ المؤرخ المحامى عباس العزاوى وهو عالم ومن الهواة فى جمع الكتب مجموعة مهمة من كتب الشيخية منها ما هو بخط الإحسائى نفسه ، ومنها ما هو بخط السيد كاظم الرشتى أو بخط الزعماء الشيخيين[2] .

حاول الملا صدرا كما حاول جماعة إخوان الصفاء وبقية الفلاسفة الإسلاميين وقبلهم الفلاسفة المسيحيون التوفيق بين الفلسفة والدين ، وبين العقل والنقل ، وبين فلسفة اليونان وبين دين الإسلام . والملا صدرا ميال إلى آراء اليونانيين بل هو مؤمن بها إيماناً كلياً ولكنه مسلم من جهة أخرى ، وفى محيط إسلامى كانت الصوفية فى ذلك الوقت تتحكم فيه . هو صوفى فى التفكير والحياة والميول . ويذهب مذهب محى الدين بن العربى فى آرائه ولا سيما فى فكرة « وحدة الوجود »[3] .

ولعل وحدة المزاجين مزاج ابن العربى ومزاج الملا صدرا هى التى جمعت بين الملا صدرا وبين التصوف الشهير على تباعد الوقت واختلاف العقيدتين — وهى التى جمعت بين الملا صدرا وبين بقية المتصوفة عموماً . والظاهر أن الملا صدرا كان يؤمن بعقائد ابن

(١) نفس المصادر Hubert, Shaikpis Ency of islam Vol 4 P, 279
(٢) راجع Donaldson The Shi'ite P, 363 Brown Vol 4 421 Traveler PP, 197. 310 — 312. راجع الكتب المؤلفة عن البابية .
(٣) راجع رسالة كشف خطأ الخوئارى فى معرفة الاحسائى ١٣٢٤ .
(٤) نفس المصدر .
(٥) ترجم روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧ .

(١) Brown Vol. 4 P, 422 Traveller's narrative pp, 278 .
(٢) عن كتب الشيخ أحمد الاحسائى راجع روضات الجنات ج ١ ص ٢٥ — ٢٧ ، أيضاً Brown Vol 4 p, 421 و Donaldson pp, 360 nicolas, Essai Sur le cheikhisme part 1. p, 60
(٣) روضات الجنات ص ٤٢٥ ، وكتبه المختلفة

العربي وبآرائه إعجاب المقلد المعجب تراه يقتبس كلمات ابن العربي وأمثاله وأفكاره ويبثها في كتبه كما لو كان يقتبس من كتاب من الكتب المقدسة السماوية . ويدل ذلك في الوقت نفسه على اطلاعه الواسع على كتب ابن العربي ومؤلفاته على غموض العبارة وصعوبة الافكار والأسلوب[1] . وابن العربي من مبدعي مذهب « وحدة الوجود » في الإسلام والملا صدرا ممن يعتنق هذا المذهب ويدين به . روى عن ابن العربي أنه كان يقول « كفر النصارى ليس بقولهم إن المسيح هو الله بل كفرهم لقولهم إنه ابن الله »[2] . وقال صدر الدين في أول رسالته سريان الوجود « ثم اعلم أن ذلك الارتباط كما مر ليس بالحالية ولا بالمحلية بل هي نسبة خاصة وتعلق مخصوص يشبه نسبة المعروض إلى العارض بوجه من الوجوه وليس هي بعينه كما توهم . والحق أن حقيقة تلك النسبة والارتباط وكيفيتها مجهولة لا تعرف »[3] . وقال « الأقرب في تقريب تلك النسبة أعني إحاطته ومعيته بالموجودات ما قال بعضهم من أن من عرف معية الروح وإحاطتها بالبدن مع تجردها وتنزهها عن الدخول فيه والخروج عنه واتصالها به وانفصالها عنه عرف بوجه ما كيفية إحاطته تعالى ومعيته بالموجودات من غير حلول واتحاد ولا دخول واتصال ولا خروج وانفصال وإن كان التفاوت في ذلك كثيراً بل لا يتناهى ولهذا قال من عرف نفسه فقد عرف ربه »[4] .

وما الناس في التمثال إلا كثلجة وأنت لها الماء الذي هو فيه[5]

فالملا صدرا على جادة ابن عربي في «وحدة الوجود» ويشاركه في آرائه الصوفية الأخرى . ولكنه كان من جهة أخرى حذراً جداً في كلامه لبقا في أساليب التعبير . وكان إذا أراد البحث في قضية من القضايا الحساسة تعمد التعقيد والأبهام والإجمال خوفاً من الاصطدام بطبقة « المجتهدين » الذين ناهضوا التصوف والفلسفة والمتفلسفين واستحوذوا على الشاه وعلى بطانة الشاه .

استحوذ رجال الدين و « أصحاب الاجتهاد » على الرأي العام وتدخلوا في شؤون الحكومة حتى أصبحت الحكومة لهم والحكم في القضايا المدنية إليهم . وتغلبوا شيئاً فشيئاً على أصحاب الذوق وعلى رجال التصوف الذين استأثروا بالحكم في بادىء الأمر حين تشكلت الدولة الصفوية ، تلك الدولة التي نشأت على أسس صوفية وعلى دعوة منظمة سياسية تسترت باسم التصوف والدروشة وذكر الله العظيم . ولكنها كانت تبث الدعوة وتوجه الأنظار سراً إلى عمل سياسي منظم قام به أبطال صفي الدين الأردبيلي الصوفي والزاهد المشهور وجد السلاطين الصفويين[1] .

ومما ساعد تفوق رجال الدين على طبقات التصوفة الفوضى الأخلاقية التي انتشرت في نوادي المتصوفة وأوكارها من « تكايا » و « خانقاه » وفي صفوف « القلندرية » و « الدراويش » إذ تحول « الذكر » الديني إلى رقص إيقاعي خليع ، وتحول « النزل الإلهي » إلى غزل شهواني مبتذل حتى اضطر المتصوفة أنفسهم إلى مكافحة هذه الطرق فيها كما فعل الملا صدرا نفسه وهو في عداد المتصوفة في رسالته « كسر أصنام الجاهلية »[2] .

وصبغ متصوفة إيران ممن سبقوا الملا صدرا أو ممن جاءوا من بعده ابن العربي وإخوانه المتصوفة بصبغة شيعية فجعلوه من كبار المجاهدين في خدمة التشيع وآل البيت وأحاطوه مع أمثاله كما أحاطه متصوفة السنة بهالة من التبجيل والتقديس . وكان الأحرى بهؤلاء أن يعدوه مع إخوانه في قائمة خاصة لا هي سنية ولا هي شيعية ، قائمة يسجل فيها مع أهل الباطن وأهل الآراء الخاصة

على أن أهل الفقه من رجال الدين ممن اشتركوا في محاربة التصوف ورجاله لم يرضوا عن ابن العربي ولا عن زملاء ابن العربي ولم يخفوا حنقهم عليه . وقد حار المترجمون فيما بعد واضطروا إلى نقل الرأيين المدح والذم على الجمع بين الضدين في مكان واحد[3] .

(يتبع)

جواد علي

---

(١) روضات الجنات ص ٤٤٢ ، وما بعد . iqbal Development of metaphysics in persia London Luwoe 1908

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١٢ ص ٧١٩ بقلم الشيخ أبو عبد الله الزنجاني .

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١٢ ص ٧٤٠ .

(٤) نفس المصدر ج ١٢ ص ٧٤١ .

(٥) نفس المصدر ج ١ مجلد ١٠ ص ٣٠ .

(١) توفي سنة (٧٣٥ هـ — ١٣٣٤ م) راجع Donaldson p, 262. Browne persian Literature in modern Tines p, 33 ff صفوة الصفا طبعة بومي سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م .

(٢) Brown Vol 4 p, 430 عن كتبه راجع أيضاً مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج ١١ — ١٢ . روضات الجنات ص ٤٤٢ .

(٣) راجع كتب التراجم مثل روضات الجنات ، وقصص العلماء ؛ حيث تجد أسماء المتصوفة في ضمن أسماء الشيعة . وفي المدح والذم .